مكانة العقل فى القرآن والسنة

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتى العام للقدس والديار الفلسطينية
فلسطين

مقدمة:

الحمد لله الذى خلق الإنسان وميزه بالعقل، والصلاة والسلام على محمد نبى الهدى، الذى وجه العقول للتفكر والتدبر فى كتاب الله المسطور، وكتابه المنظور وبعد:

لقد نزل الوحى القرآنى على مجتمع واقعه يقوم على التبعية والتقليد لما تعارف عليه الآباء والأجداد من تراث منظم لشؤون حياتهم، أكثر من قيامه على الاستقلالية الفكرية والعقلية، لسن ما فيه صلاح المجتمع من قوانين وأعراف منظمة لحياتهم فى مختلف مناحيها الداخلية منها، وعلاقاتها الخارجية. قال تعالى مخبرًا عن هذه الروح التقليدية للمجتمع الجاهلى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠)، وقال تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢).

فمجتمع يعيش بمثل هذه التصورات المعطلة للعقل الجامد على معتقدات الآباء والأجداد، لا شك أنه لن يتقبل هذه الرسالة الجديدة التى نزلت بين ظهرانيهم، الرسالة التى تدعوهم إلى حقائق الإيمان التى لم يألفوها من قبل، وتتوع فيها خطاب الوحى فى الاستدلال العقلى على إثبات المسائل الإيمانية، تربية له لكى يتحرر من النظرة السطحية للحياة ومكوناتها، وعدم الجمود فيها على الأفكار القائمة على العبثية وعدم التقييد والتكبيل لملكة العقل التى ميزت الإنسان عن سائر الحيوانات والمخلوقات الأخرى، فميزت هذه الرسالة بما فيها من تناغم بين نص الوحى والعقل.

يأتى هذا البحث فى إطار بيان مكانة العقل فى القرآن والسنة ودوره فى الاستدلال على مسائل العقيدة، فضمنته مجموعة مباحث، اختص الأول منها كمدخل للبحث بتعريف العقل فى اللغة والاصطلاح، وفى المبحث الثانى بينت مكانة العقل فى الإسلام، وفى المبحث الثالث مكانة العقل فى

القرآن الكريم، وفى المبحث الرابع بينت مكانة العقل فى السنة، وخصصت الحديث عن العقل باعتباره الوسيلة للاستدلال على عالم الغيب من خلال تفكره فى عالم الشهادة (السماوات والأرض وما حوته من ظواهر)؛ وفى المبحث الخامس تحدثت عن مكان العقل وحواجبه، ومزيلاته، ومعطلاته، وأبرزت أن الإسلام هو دين العلم والعقل؛ وفى المبحث السادس تطرقت إلى محدودية العقل وسبل تنميته؛ وذيلت ذلك جميعا بالخاتمة التى هى بمثابة استخلاصات البحث.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق النقاط الآتية:

١- الإشارة إلى بعض آيات كتاب الله تعالى المتعلقة بالعقل والوقوف فى ظلالها.

٢- جمع عينة من الأحاديث المتعلقة بالعقل فى السنة وتخريجها وتحليلها.

٣- استنباط المواضيع التربوية والدعوية المتعلقة بالعقل فى القرآن الكريم والسنة النبوية (أهميته، مكانه، مزيلاته، تفاوت الناس فى العقل، تنمية العقل).

٤- الوصول إلى توصيات تتعلق بالعقل وتنميته.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث فيما يأتى:

١- المساهمة فى التأصيل الإسلامى للعلوم التربوية.

٢- محاولة إفادة العاملين فى حقل التربية والتعليم.

٣- محاولة مساعدة الأسرة فى تنمية عقل الطفل بشكل سليم.

٤- خدمة القرآن الكريم والحديث الشريف.

منهج البحث:

تم استخدام البحث المنهج الوصفى التحليلى الذى" يعتمد على تجميع الحقائق والمعلومات، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات مقبولة(١)، وتحليل المحتوى وهو ذلك الأسلوب البحثى المستخدم فى عمل استدلالات معينة من مادة إعلامية عن طريق تحديد سمات تلك المادة بشكل موضوعى ومنظم وكمى" (٢).

وقد تم الالتزام بالنقاط الآتية:

١- الحرص قدر المستطاع لأن يكون الحديث من الصحيحين إلا للضرورة.

٢- الأحاديث الطويلة أقتصر على موضع الشاهد فى الحديث.

خطوات البحث: تمت إجراءات البحث من خلال الخطوات الآتية:

١- جمع عينة من الآيات القرآنية والأحاديث المتعلقة بالعقل فى السنة النبوية، مستندًا إلى الصحيحين، أو من خارجهما لضرورة محددة.

٢- تخريج الأحاديث المذكورة أعلاه.

٣- تحليل نصوص الآيات والأحاديث.

٤- استنباط المواضيع التربوية والدعوية المتعلقة بالعقل.

٥- النتائج والتوصيات.

مصطلحات البحث:

ـ **العقل**:قال المحاسبى فى تعريفه للعقل: " إنه غريزة جعلها الله فى الممتحنين من عباده لا يوصف بجسم ولا لون ولا يعرف إلا بفعاله"، وقال الجرجانى عن العقل: إنه " جوهر مجرد عن المادة فى ذاته مقارن لها فى فعله ـ فهوـ جوهر روحانى، خلقه الله متعلقًا بالبدن "(٣).

ـ **القرآن الكريم**: هو كتاب الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.(٤).

ـ **السنة النبوية**: ما أثر عن النبى ﷺمن قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية(٥).

المبحث الأول

العقل فى اللغة والاصطلاح

أـ مفهوم العقل فى اللغة: تدل مادة "عقل" فى اللغة العربية على حالة حبس وتقييد، قال ابن فارس: العين والقاف واللام أصل واحد منقاس، يدل على حبسه فى الشىء، أو ما يقارب الحبسة) (٦).

فالعقل حبس أو وضع، ومنه عقال البعير الذى يمنعه من الانفلات، والمعقل: الذى يلجأ إليه الناس فيمنعهم من عدوهم ونحوه وعلى هذا سمى العرب ما فى الإنسان عقلاً لأنه يمنعه من أشياء لولاه لانساق إليها الإنسان، قال فى تهذيب اللغة " سمى عقل الإنسان الذى فارق به الحيوان عقلاً، لأنه يعقله، أى يمنعه من التورط فى الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه"(٧).

العقل: المنع، ولهذا يمنع النفس من فعل ما تهواه، مأخوذ من عقال البعير، المانع له من السير حيث شاء، وهو أصل لكل علم، وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه من

العدول عن سواء السبيل[٨]، وهو "غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب" [٩].

و"معنى العقل هو العلم، لا فرق بينهما، لأنه لا فرق عند أهل اللغة وأرباب اللسان بين قولهم: علمت وعقلت، فسيعلمون العلم والعقل على حد واحد، وفى معنى واحد، ويقولون: هذا أمر معلوم ومعقول، ويقولون :اعلم ما تقول، وأعقل ما تقول" [١٠].

وهو " ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات" [١١].

ب ـ مفهوم العقل فى الاصطلاح: قال الغزالى: "إن العقل يعنى العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ـــ سنأتى على مكان العقل فى المباحث اللاحقة، وحديثًا يعرف العقل بأنه: مجموع السلوك الذى يتضمن التذكر والتفكير والإدراك، وكثيرًا ما يستعمل مرادفًا للخبرة الشعورية" [١٢]."

وعرف ابن حيان العقل بأنه:" اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باجتناب الخطأ."

وهذا النوع من المعرفة ليس الناس فيه سواء فله مستويات ودرجات أربع، فإذا كان المرء فى أول درجاتها سمى أديبًا، وفى الثانية أريبًا، والثالثة لبيبًا، وفى الرابعة عاقلاً، وإذا أردنا تشبيهًا لمصطلحات ومستويات عصرنا الحاضر فسوف نجد على التوالى: المتعلم، والباحث، والعالم، والمفكر[١٣].

ويعرف العقل بأنه الجوهر المجرد الذى تدرك به حقائق الأشياء. إن هذا التعريف يفيد أنه قوة حكيمة، وله جانب تجريبى أيضًا، وعلى ما يبينه الراغب الأصفهانى الذى تناول معانى العقل التى وردت فى القرآن الكريم:" العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة العقل، ولهذا قال أمير المؤمنين على رضي الله عنه :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

والمقصود من العقل الأول هنا هو العقل الذى يوجد فى الإنسان بالطبع ويدرك العلل والمعلولات بين الحوادث، وهو قوة للإدراك وللتصور وللتفكير، وهذا ما يسمى بالعقل

والطبع السليم، وبحسب ما يعرفه الفلاسفة المسلمون والغربيون على العموم هذا هو العقل النظرى؛ العقل بالقوة، والعقل الثانى هو الذى يكتسبه الإنسان عن طريق الحواس والتجربة، العقل بالفعل، وهذا الأخير شائع بين الناس بالتجربة أيضًا(١٤).

ويقسم الإدراك العقلى من جهة تفاوت قوته إلى درجات منها:

١ــ الإدراك الكامل القطعى: وهو الذى يؤدى إلى الجزم والعلم واليقين، ولا يحتمل الخطأ والاشتباه لوضوح حقيقته فى النفس كإدراكنا: أن الضدين لا يجتمعان، وأن الخطين المتوازيين لا يلتقيان. ..ومنها

٢.الإدراك الناقص الظنى: وهو أن يتجه العقل نحو ترجيح شىء وتقويته وتفضيله دون الجزم به لاحتمال الخطأ والاشتباه؛ كإدراكنا أن القوى الشجاع لن ينخذل ويتراجع أمام أعداء الله تعالى، وأن الضعيف الجبان لن يصبر ويثبت أمامهم (١٥).

المبحث الثانى

أهمية العقل ومكانته فى الإسلام:

أهمية العقل:

تقوم التربية الإسلامية على احترام العقل أى تكريمه أو إكرامه، وإنما كرم الإسلام العقل لأنه مناط التكليف وبه يعرف الله تعالى ويعبد، وبه يكون الإيمان، وبه يتحمل الإنسان مسئولية نفسه ويتحمل جزاء مخالفاته ومعاصيه (١٦)، ولتوضيح ذلك يمكن القول أن معرفة الله وتوحيده إنما يكون بالعقل، ومن فقد العقل لأى سبب زال عنه التكليف والحساب والعقاب، وكان كالطفل والمجنون وأمثالهما.

الإيمان نفسه لا يهتدى إليه إلا بالعقل، أى أن العقل بالتفكير والتدبر يخرج الناس أو يخرج صاحبه من الكفر إلى الإيمان، والعقل هو الذى يجعل الإنسان مسئولاً عن نفسه.

وتقدير الإسلام للعقل يقوم على شواهد وبراهين منها:

١ــ أن العقل واحد من المقاصد الخمسة التى أوجبت الشريعة الإسلامية الحفاظ عليها، وجرمت أى عدوان عليها وفرضت على من اعتدى عليه عقوبة، وتلك المقاصد الخمسة للشريعة هى: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.

٢ــ أن الإسلام قد فتح أمام العقل باب الاجتهاد فيما يمكن الوصول إليه بالفعل، والاجتهاد عمل عقلى يقوم على التفكير والتدبر والنظر والقياس، ويتوخى الاستحسان والمصالح المرسلة وسد

الذرائع، وكل هذا لا يعرف ولا يتوصل إليه إلا بالعقل.

٣ــ أن الإسلام فتح أمام العقل باب الشورى والتشاور والاستشارة كلها أعمال عقلية، قيل لابن المبارك " ما خير ما أعطى الرجل؟ قال:عقل، قيل فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل" (١٧).

٤- جعل الإسلام العقل مناط التكليف، فالواجبات الشرعية لا تترتب إلا على العقلاء، حيث قال صلى الله عليه وسلم: **[رُفِعَ الْقَلَمُ عن ثَلَاثَةٍ؛ عن النَّائِمِ حتى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِى حتى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حتى يَعْقِلَ]** (١٨).

والقاعدة الشرعية تقول: "إذا سلب ما أوهب، أسقط ما أوجب " (١٩).

وقد جعل الله عز وجل العقل مناط تشريف وتكريم الإنسان، بأن جعله سببا لتميزه عن سائر الحيوانات والدواب المحرومة من هذه الخاصية، كما جعل الله عز وجل هذا العقل أيضًا مناط تكليف الإنسان، وجعله المعول الأساس فى فهم أحكام الشريعة، والمرشد لكيفية تنزيلها وتطبيقها فى واقع المجتمعات. يقول العز ابن عبد السلام: " والعقل هو مناط التكليف بإجماع المسلمين" (٢٠). ويقول القرطبي فى تفسيره:" فأوجب الله التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، والعاقل أقرب إلى ربه من جميع المجتهدين بغير عقل" (٢١).

ولقد اهتم الإسلام بالجانب العقلى بما يتفق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وأحاطه بسياج من العناية والرعاية، فالإسلام إذن هو دين العقل، ودين البحث والنظر والفكر، وعقيدته تعتبر أن العقل مع نصوص الوحى أساسيان لبناء الجانب الإيمانى ولا تعارض بينهما، لأن كل منهما منحة من الله، ومنح الله لا تتعارض. كما أن المتأمل فى سور القرآن لا يكاد يجد سورة من سوره تخلو من هذه الدعوة، إيقاظًا للقلب حتى يلج بنظره داخل هذا الكون، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يحمل الناس على التصديق والإيمان بالرسالة وما ورد فيها من عقائد مكتفيًا بالمعجزات الحسية التى تتعدى النظام الكونى وتخرقه لفعل ذلك، ولكن الإسلام دين الحرية لا الإكراه، ودين الاختيار لا دين القهر والقسر، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ

عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٥).

المبحث الثالث

مكانة العقل فى القرآن الكريم

نماذج من نصوص القرآن الكريم الموجهة للعقل:

ونعرض فيما يلى إلى نماذج من نصوص الوحى الموجهة للعقل بقصد توجيهه للتأمل والتفكر فى حقيقة وجود الله ومعرفة صفاته، وتصحح مساره فى قضية الإلوهية التى هى رأس قضايا الإيمان والتصور، إذ بصلاحها تصلح باقى التصورات الإيمانية الأخرى، وذلك من خلال دعوة هذه النصوص الإلهية للنظر والتأمل فى الطبيعة بسمائها وأرضها، والتأمل فى ذات الإنسان وما اشتمل عليه من تناسق عجيب ودقيق فى خلقه، وما أودعه الله فيه من أسرار ما زال العلم يكتشفها باستمرار ويقر بجهله بحقائقها كافة، وكذلك التفكر والتأمل فى الوحى المنزل باعتباره الحقائق الإلهية الكاملة المعصومة، وهو الكتاب المعجزة الذى لا يعتريه نقص أو خلل أو زلل، ولا يأتيه الباطل من خلفه، ولا من أمامه، والذى يعلو عن كلام المخلوقات مجتمعة بإنسها وجنها، وكذلك باعتباره الموجه لعقل الإنسان حتى يتوصل لحقيقة الإلوهية والتوحيد لله تعالى.

لقد أورد الوحى النصوص أو الدلائل التى تحدثت عن وجود الله وخالقيته للأكوان تارة مجملة جمعت بين ملكوت السماوات والأرض، وتارة مفصلة لآياته المبثوثة فى سمائه، أو فى أرضه.

فالمجمل من هذه النصوص أو الدلائل العقلية مثال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

فحركة الشمس والقمر والنجوم، وتقلب الليل والنهار وتعاقبهما، وكيفية حركة وتنقل السفن ذات الألواح والدسر فى أمواج البحر المتلاطمة، وكيفية إنبات النبات ومراحل نموه، كلها حالات لا يمكن أن تدرك بغير إعمال للفكر والعقل، وهى ظواهر وأسباب لا بد من مسبب حقيقى يجريها على هذا النحو من الدقة وفق سنة وقوانين مضبوطة حتى تؤدى إلى النتائج المفيدة المثمرة.

يقول الشيخ ابن عاشور فى تفسيره للآية السابقة: "فوجه دلالة هذه الآيات على الوحدانية أن هذا النظام البديع فى الأشياء المذكورة، وذلك التدبير فى تكوينها وتفاعلها

وذهابها وعودها ومواقيتها، كل ذلك دليل على أن لها صانعًا حكيمًا متصفًا بتمام العلم والقدرة والحكمة، وهى الصفات التى تقتضيها الإلوهية" [٢٢].

وقال تعالى مشيرًا إلى خالقية الله للسماوات والأرض داعيًا أصحاب العقول السليمة إلى تدبر ذلك تربية لحس التأمل لديهم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

يقول سيد قطب ــ رحمه الله ــ ملقيًا ظلال فكره على هذه الآية:" والسياق هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرًا دقيقًا، وهو فى الوقت ذاته تصوير إيحائى يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التفاعل مع الكون، وفى التخاطب الموصول معه بلغته، ويجعل كتاب الكون المفتوح كتاب " معرفة" للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبدعه يد الله"[٢٣]،قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(النحل: ٣)، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم: ٨).

أما المفصل من هذه الدلائل المثيرة والمستفزة لعقل الإنسان أن يتدبرها ويتدبر ما أشارت إليه من حقيقة الإيمان بالخالق وتصحيح التصور فيه، منها ما كان مختصًا بالظواهر السماوية ومنها ما هو مختص بالظواهر الأرضية كعلم الإنسان والحيوان والنبات وتأتى فيما يلى على كل واحد منها بالقدر الذى نستبين معه هذه التربية العقلية القرآنية للإنسان.

أولاً: ما اختص من الدلائل بالظواهر السماوية، ونستدل لها بما يلى:

أ- دعوة الوحى الصريحة للتفكر والتدبر العقلى فى السماء وما حوته من آيات مبدعة ومتقنة: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾(ق: ٦) وذم الوحى فى مواضع أخرى من أعرض عن التدبر فى هذه الآية الكونية الكبرى، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٢)، وقال فى آية أخرى يؤنب المشركين على غفلتهم فى النظر فى ملكوت السماوات والأرض الذى يدلهم على حقيقة الخالق﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (الغاشية:

١٧ــ١٨).

ب ــ لفت نظر العقل إلى كيفية رفع السماوات، ودلالة ذلك على عظم وقدرة الصانع الحكيم، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (لقمان: ١٠).

ت ــ التأمل والتدبر فى كيفية تسخير الله لهذه الظواهر السماوية على النحو الذى يساعد الإنسان فى مهمته الاستخلافية الاستعمارية للأرض، ويدلل على قصدية خلقها فى هذه الحياة وكونها نعم عظمى، لا تصدر إلا من إله منعم عظيم رحيم بعباده. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢).

ث ــ الدعوة للتدبر والتأمل فى كيفية نشوء آيتى الليل والنهار، وارتباط ذلك بحركة كل مــن كوكب الشمس والقمر والأرض فى أفلاكها ومداراتها، على نحو من الدقة والانضباط فيما وضع لها من سنن وقوانين، لا يمكن أن تصدر إلا من قدرة مطلقة حكيمة عظيمة هــى قــدرة الله ســبحانه وتعالى. قــال تعــالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس: ٣٧ــ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٥)؛ قال المفسرون فى تفسير هذه الآية:" ودلالة خلق البروج وخلق الشمس والقمر على عظيم القدرة، دلالة بينة للعاقل، وكذلك دلالة على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل، ولا يختلف حتى يتسنى للنـــاس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها... واختلاف الليل والنهار يعلم أنه لا بد لانتقالهما – من حال إلى حال– إلى مؤثر حكيم، فيستدل بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنه عظــيم القــدرة، فيــؤمن بأنــه لا يستحق غيره الإلوهية"(٢٤).

ثانيًا: ما اختص من الدلائل بالظواهر الأرضية: فإذا كانت صلة الإنسان بالسماء وما حوته من شمس، وقمر، ونجوم، وكواكب، صلة قد تكون بعيدة، ويصعب معرفة تفاصيل أسرارها، فـــإن هذا الإنسان فى تماس والتصاق بعالم الأرض، يعرف الكثير من أسرارها وأحوالها وأجزائها الماثلة أمام ناظريه، وهى أقرب لبصره وبصيرته ووعيه وإدراكاته من العالم السماوى العلوى.

إن الوحى الكريم وهو يوجه عقل الإنسان وتفكيره للنظر فى هذا العالم الأرضى فهو يوجهه لمكوناته الأساسية:

أولها: قسمها البرى (اليابسة)؛ وما اشتمل عليه من خواص جغرافية تضاريسية، وخـواص زراعية.

ثانيها: قسمها المائى؛ وما اشتمل عليه من بحار وأنهار وأودية.

ثالثها: قسمها الكائني؛ وما اشتمل عليه من دواب، وتتمثل فى الإنسان المستخلف من قبـل الله فى هذه الأرض، ومجموع الحيوانات البرية والمائية أو الجامعة بينهما، علـى مختلـف فصـائلها وأنواع أفرادها.

رابعها: قسمها النباتى؛ وما اشتمل عليه من زروع وأشجار بمختلف أنواعها.

فالإنسان بتوجيه من الوحى والفطرة السليمة لو تأمـل هـذه الظـواهر الأرضـية بعقلـه وبصيرته، لرأى من الإتقان والإبداع فى الصنعة والخلق ما ينفى القـول بصـدفية هـذا الخلـق، ولانجلى له البرهان واضحًا ساطعًا على حقيقة الموجد المتقن لهذه المخلوقات، ولاهتدى إلى الرشد وعرف ربه الذى خلق كل شيء فأحسن خلقه وصنعه وتصويره.

ونأتى فيما يلى إلى التدليل على هذه الموجهات التربوية العقلية للوحى، التى تبرز للإنسان يد القدرة والإتقان الدالة على حكمة الصانع، الذى صنع هذه الآيات الباهرة فى الأرض.

أ ــ توجيه الوحى للعقل أن يتدبر ويتأمل فى حركة الأرض، وتماسكها فى مدارها، تدليلاً بذلك على عظمة الصنع والإتقان اللذين لا يصدران إلا عن إله قدير حكيم، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٨٨)، قال المفسرون فى تفسير هذه الآية:" هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم لما فى هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذى أودع فى القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمى يدركها أهل العلم، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه اللفظى" [٢٥].

ب ــ توجيه الوحى للعقل أن يتدبر ويتأمل فى نعمة تسخير الأرض للإنسان، وتهيئتها لتكون صالحة له فى معاشه عليها، صارفًا العقل للتدبر فى هذه النعم وهذا التسخير، الذى لا يمكن إلا أن يدل على غائية هذا الخلق، والغائية ضد القول بالصدفة، وهى دليل على وجود موجدٍ قاصدًا بحكمته هذه النعم الكونية الظاهرة، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ

هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(النمل: ٦٠ ــ٦٤).

فالإنسان المستجيب للتربية القرآنية فى التفكر والتأمل فيما حوله من أشياء يدرك أن الله سبحانه هو الخالق لهذه الأرض على النحو الذى جعلها مهيأة ومعدّة لإمكان حياة الإنسان عليها، لأنه محور العالم الأرضى، وسخر له الله الكائنات والقوى الطبيعية الأخرى. وللشيخ عبد المجيد الزندانى بيان فى هذه المسألة حيث يقول:" هيأ الله الأرض وأعدها لحياة الإنسان بالماء، والهواء، والطعام، والجبال، والجاذبية، والأمطار، والرياح، والسحب، والبحار، والشمس، والدفء، والنبات، والحيوانات، وجعل الله الأرض تجرى فى مدار محكم دقيق على بعد من الشمس صالح لحياة الإنسان، بسرعة مناسبة، وحجم مناسب، وكثافة مناسبة، وميل محكم، وقدر توقيتًا دقيقًا فى ليل ونهار، يتعاقبان فى غاية النظام والإحكام. كل ذلك يشهد أنه من صنع الحكيم، المريد، العليم، القادر، المهيمن، الرحيم، العظيم" (٢٦).

ت ــ تربية العقل على التأمل فى حقيقة الخالق من خلال التأمل فى آية " الجبال"، هذا الخلق العظيم ذو الأحجام الهائلة التى تلعب دورًا رئيسًا فى استقرار الأرض أن تميد بأهلها، فكانت بمثابة الأوتاد للأرض. قال تعالى: ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ (النحل: ١٥)، وقال تعالى: ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ ﴾ (لقمان: ١٠)، ثم أعقب هذه الآية بقوله: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (لقمان: ١١)، ففى الآية ربط صريح بإعجاز الله فى خلق الجبال، وكونها آية دالة على عظمة الخالق، وقدرته، ومن أعمى بصره وبصيرته على هذه القدرة فهو مضل مبين، وقال تعالى فى آية أخرى﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴾ (النبأ: ٦ــ٧).

وينقل الشيخ عبد المجيد الزندانى فى معرض حديثه عن الإعجاز الإلهى فى خلق الجبال ومن كونها دليلا على عظمة الصانع وحكمته: حقيقة تأكد الباحثون منها عام ١٩٥٦م، أن تحت كل جبل عرق يعتبر امتدادا له، قد غرس فى الطبقة العجينية أو اللزجة التى تحت طبقة الصخور، وقد جعل الله هذا الامتداد تحت كل جبل ماسكًا للقارات أن تطوف أثناء دوران الأرض. فهذه الأوتاد المغروسة فى الطبقة اللزجة التى تحت الجبال تثبت القارات كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس بين التراب، وأشار الشيخ الزندانى إلى أن تأكد الباحثين لهذا الكشف العلمى، قد ذكره الدكتور فاروق الباز المختص فى علم الجيولوجيا والفضاء، ومدير معهد سميث سوفيان لعلوم الأرض والفضاء [٢٧].

ث ــ توجيه العقل إلى التأمل فى تكوير الأرض، وأنها غير مختلفة فى خلقها عن سائر الكواكب المكورة المنظورة لدينا، بما يدل على اتساق حركة الكون جميعًا ووحدة نظامه الدال على توحّد المنظّم المبدع، المجرى لها على سنن دقيقة متقنة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٣٠ــ٣٢).

ج ــ إرشاد الوحى العقل أن يتأمل ويتفكر فى عالم النبات والزروع بقسميها المائى والهوائى، يحلل مراحل نموها وتركيبها الكيميائى، وتولد عوامل الحياة والخضرة فيها من عناصر طبيعية جامدة ميتة، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

فالله ــ عز وجل ــ هو الوحيد الذى له قدرة إخراج النبتة الخضرة الملأى بالحياة من الأرض الموات التى لا حراك لها، فعالم النباتات عالم عجيب يحار العقل فى استيعاب ما فيه من إبداع وإتقان ودقة، لا يمكن بحال من الأحوال أن يخضع لما يسمى بالصدفة[*]، حيث إنك قد تجد فى نفس البقعة من الأرض مجموعة لا بأس بها من النباتات، تضمها نفس التربة، وتسقى بنفس الماء مطرا كان أو ريًا بالآبار، وتتنفس جميعًا من ذات الهواء، وتتلقى نفس حرارة الشمس؛ ولكن تنمو كل بذرة حسب خواص مجموعتها، فتختلف كل واحدة منها عن الأخرى فى النوع، والصنف، والشكل، والحجم، واللون، والطعم، والرائحة، وشكل الأوراق والأزهار ولونيهما وحجميهما وتختلف أيضًا فى نوعية جذوعها أو أخشابها، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(النحل: ١٣)، وقال تعالى منبهًا العقل ليتأمل

ويتدبر فى أنواع وأصناف النباتات ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ١٠ ــ ١١)، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان: ١٠ــ١١)، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (ق: ٧ــ٨)، هذه الآيات جميعها الدعوة فيها صريحة للتفكر وإعمال البصيرة فى آيات الله البديعة فى عالم النبات لإدراك حقيقة الخالق.

يقول الشيخ عبد المجيد الزندانى: "إن التراب، والماء، والهواء، والضوء، كلها مواد ميتة، لا تنمو، ولا تتحرك، ولا تتنفس، ولا تتزاوج، ولا تتغذى، فإذا رأينا أن الخالق يكوّن من هذه المواد الميتة أشجارا تنمو، وتتنفس، وتتحرك، وتتغذى وتتزاوج، فتنتج الثمار والحبوب، عرفنا أن الخالق قد جعل من المواد الميتة أشجارًا ونباتات حية، ونعلم أن المحيى سبحانه...فإذا رأينا التراب – وقد أحياه الله – فجعله نباتات مختلفة الأشكال والألوان والثمار، لكل شجرة رسم خاص فى أوراقها وعروقها وأغصانها وأزهارها وثمارها.. إن ذلك يشهد أنه من صنع المصور سبحانه وتعالى"(٢٨).

ح ــ دعوة القرآن للإنسان أن يعمل عقله فى نعمة الماء الذى جعله المولى سبحانه نعمة للحياة، وجعل انقطاعه انقطاعًا لأسباب الحياة، وذلك لإبراز قيمة هذه النعمة ودلالتها على توحيد الخالق سبحانه إذ إن وحدة مصدر الحياة دليلٌ على وحدة الخالق لكل المخلوقات المحتاجة لهذا المصدر، حتى تنبعث فيها الحياة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وقال تعالى لافتًا العقل للنظر فى أسباب نشوء، وتكون مياه الأمطار، ومراحل ذلك، بحيث لا يبقى مجال للعاقل إلا أن يقر بدقة وإتقان المجرى لهذه المراحل وفق سننه الكونية الباهرة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الروم: ٤٨).

وقال تعالى مرشدًا إلى التأمل فى حكمة الخالق سبحانه، حيث يجعل هذا الماء المنزل من السماء بعد تبخره من مياه البحار الشديدة الملوحة سائغًا صالحًا لحياة الإنسان والحيوان والنبات دون أن يخالطه أدنى ملوحة: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٨ــ٧٠)، وقال تعالى ملفتًا النظر والفكر إلى سبب تكون الأنهار والأودية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٢١).

خ ــ توجيه الوحى للعقل أن يتدبر فى عالم الحيوان، فيتأمل أنواع أفراده؛ سواء منها الماشى على رجلين، أو الماشى على أربع، أو الطائر، أو الزاحف، وعلى اختلاف الخواص السلوكية لكل نوع منها، مع تنوع أشكالها وأحجامها وحدود أعمارها، وكيفية مراحل انبعاثها للوجود، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٣٧)، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور:٤٥)، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٧ــ٢٠)، فالآيات الأخيرة فيها استفزاز مباشر للعقل أن ينظر فى مثل هذه الأشياء، كالنظر فى كيفية خلق الإبل العظام [*] من النطفة الضئيلة التى لا ترى حيواناتها المنوية إلا بالمجهر.

وقد ألمحت آيات أخرى من القرآن إلى أن خلق هذه الحيوانات على النحو الذى ييسر للإنسان حركة نقله ونقل أمتعته، بالإضافة إلى ضمان حياته بالتغذى من لحومها، والاكتساء من جلودها لهو

كذلك من الآيات الدالة على قدرة الخالق، وحسن تدبيره للكون، حيث يربط المخلوقات ببعض، ويجعل وجود كل منها سببًا فى وجود الآخر، ومثل هذه الآيات دعوة للعقل أن يستنتج هذا الترابط وهذه العلاقة التسخيرية التى تدله على أن هناك يدًا قديرة حكيمة وضعت الكون على هذا النحو، وربطت الأسباب بمسبباتها، وعلى سبيل التمثيل لهذه الآيات التى ربط المولى سبحانه فيها بين هذه الدعوة للنظر والتفكر فى نعمة التسخير للحيوانات، وبين الدعوة لتوحيده عز وجل، والاعتراف له بالنعمة والشكر، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (يس: ٧١ـ٧٥).

خطاب الوحى للإنسان أن يتفكر ويعمل عقله فى معجزة نفسه كإنسان:

وذلك بهدف السعى لكشف أسراره حتى يتبين له عظمة الخالق، ووحدانية الصانع، وقدرته اللامتناهية فى الخلق والصنعة، وإثبات عبثية القول بصدفية خلق الإنسان على هذا النحو المتناهى الدقة، الذى لا يزال العلم الحديث محتارًا فى كشف أسراره ومجاهله كافة، برغم كثرة ما كشفه منها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠ـ٢١).

وقال تعالى ملفتًا عقل الإنسان إلى وحدة المنشأ وخلقه للبشرية كافة، وهى معجزة لا يمكن إلا أن تدل على أن مصدر البشرية واحد: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٨)، وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥).

ويضع الوحى العقل كذلك أمام مراحل تكون الإنسان فى مختلف مراحل تطوره الجنينى، منذ أن كان نطفة مذرة، إلى أن صار إنسانًا سويًا، كامل الخلق، قادرًا على مباشرة هذه الحياة، وكله شدة وقوة ونشاط، لعله بذلك يهتدى لخالقه، فيوحده ويعبده، ويعيد إليه الفضل والنعمة، ويعترف له بإلوهيته وربوبيته، ويدرك النقص الذى يشوب سائر المخلوقات إزاءه، فيوحده فى أسمائه وصفاته، ولا يكون له خصيمًا جاحدًا، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ٤)، وقال تعالى ملفتًا العقل للربط بين خلق الإنسان ومصدر هذا الخلق، وهو الله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٢ــ١٤)، فمن أدرك عقله هذه الأطوار ومراحلها، وأدرك توحدها لدى البشرية كافة على هذا النحو الترتيبى الدقيق، ليس له إلا أن يعترف لله بهذه الخالقية، ولسان حاله يقول: (تبارك الله أحس الخالقين).

يقول عالم الطبيعة والفيلسوف "داريت ستانلى كونجدن" عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، فى نهاية مقال له يربط فيه بين هذا الكون وبين الخالق العظيم الحكيم:"... إن جميع ما فى الكون يشهد على وجود الله سبحانه، ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم ــ نحن العلماء ــ بتحليل ظواهر الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته، ذلك هو الله الذى لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته فى أنفسنا، وفى كل ذرة من ذرات هذا الوجود" (٢٩).

المبحث الرابع

مكانة العقل فى السنة النبوية:

نماذج من الأحاديث النبوية الموجهة للعقل:

١ــ قال حُمَيْدُ بن عبد الرحمن سمعت مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا يقول سمعت النبى ﷺ يقول: **[من يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّينِ، وَإِنَّمَا أنا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِى، وَلَنْ تَزَالَ هذه الْأُمَّةُ قَائِمَةً على أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ، حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ]**(٣٠).

فهذا الحديث يحث على التفقه فى الدين، والفقه هو العلم والفهم.

٢ــ وقال صلى الله عليه وسلم: **[...ومنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ الله له بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قَوْمٌ فى بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ]** (٣١).

وهذا الحديث، جعل السعى فى طلب العلم طريقًا وسبيلاً إلى الجنة، كما جعل التدارس فى كتاب الله سببًا فى نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحضور الملائكة

وغيرها من الفضائل والخيرات.

٣ــ عن عَبْدَ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ قال: قال النبيﷺ:" لَا حَسَدَ إلا فى اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالا، فَسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ فى الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِى بها، وَيُعَلِّمُهَا" (٣٢)، فى هذا الحديث، يحض النبى ﷺ المسلمين على التنافس فى طلب العلم وتعلمه، وتعليمه، والدعوة إلى المسابقة فى ذلك.

٤ــ عن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ:**[لِيَلِنِى مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثَلَاثًا، وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ]** (٣٣).

يحث الرسول ﷺعلى تقديم أولى الأحلام والنهى أى أصحاب العقول الراجحة خلف الإمام، ويحذرهم من المنازعات والخلافات وارتفاع الأصوات.

٥ــ عن أَنَسٍ أَنَّ النبى ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فقال: لو لم تَفْعَلُوا لَصَلُحَ، قال: فَخَرَجَ شِيصًا(٣٤). فَمَرَّ بِهِمْ، فقال: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قال: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ"(٣٥). ففى هذا الحديث دلالة على أن من العلم ما يحتاج إلى اكتساب وتعلم، وهو نتاج الخبرة فى هذه الدنيا والخبرة ترجع إلى العقل، وفيه دعوة إلى الأخذ بالأسباب.

٦ــ عن عبد الرحمن بن أبى بَكْرَةَ، عن أبيه؛ ذَكَرَ النبى ﷺ قَعَدَ على بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ أو بِزِمَامِهِ، قال: **[أى يَوْمٍ هذا؟]** فَسَكَتْنَا حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قال: **[أَلَيْسَ يوم النَّحْرِ]**؟ قُلْنَا: بَلَى، قال: **[فَأَى شَهْرٍ هذا]**، فَسَكَتْنَا حتى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فقال: [أَلَيْسَ بِذِى الْحِجَّةِ]؟ قُلْنَا: بَلَى، قال: **[فَإِن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، فى شَهْرِكُمْ هذا، فى بَلَدِكُمْ هذا، لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فإن الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ من هو أَوْعَى له منه]**(٣٦).

هذا الحديث يبين تفاوت الناس، واختلافهم فى الفروق الفردية؛ فرب مبلغ لم يسمع الحديث مباشرة يكون أوعى له من سامع، وأفقه لمعانيه.

وفى هذا الحديث من الفوائد الحث على تبليغ العلم، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية، وأن الفهم ليس شرطًا فى الأداء، وأنه قد يأتى فى الآخر من يكون أفهم ممن تقدمه، وفيه جواز القعود على ظهر الدواب، وهى واقفة إذا احتيج إلى ذلك(٣٧).

٧ــ عن أبى مُوسَى عن النبى ﷺ، قال: **[مَثَلُ ما بَعَثَنِى الله بِهِ من الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ**

الْكَثِيرَ، وكَانَتْ منهــا أَجَــادِبُ، أَمْسَــكَتْ الْمَــاءَ، فَنَفَــعَ الله بهــا النــاس، فَشَــرِبُوا، وَسَــقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَى؛ إنما هِى قِيعَانٌ لَا تُمْسِــكُ مَــاءً، ولا تُنْبِــتُ كَلَــأً، فَــذَلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ فى دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِى الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّــمَ، وَمَثَــلُ مــن لــم يَرْفَــعْ بِــذَلِكَ رَأْسًا، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذى أُرْسِلْتُ بِهِ، قال أبو عَبْــد اللَّــهِ: قَــال إِسْــحَاقُ: وكَــان منهــا طَائِفَةٌ قَيَّلَتْ الْمَاءَ قَاعٌ، يَعْلُوهُ الْمَاءُ وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوِى من الأرض] (٣٨).

قوله قيعان بكسر القاف جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء التى لا تنبت، قوله فُقه بضم القاف أى صار فقيهًا.

قال القرطبى وغيره: ضرب النبى ﷺ لما جاء به من الــدين مــثلا بالغيــث العــام الــذى يأتى الناس فى حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبــل مبعثــه، فكمــا أن الغيــث يحيــى البلد الميت فكذا علوم الدين تحيى القلب الميــت، ثــم شــبه الســامعين لــه بــالأرض المختلفــة التى ينزل بها الغيث، فمــنهم العــالم العامــل المعلــم فهــو بمنزلــة الأرض الطيبــة شــربت فانتفعت فى نفسها وانبتت، فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المســتغرق لزمانــه فيــه، غيــر أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره، فهــو بمنزلــة الأرض التــى يســتقر فيها الماء، فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقولــه: نضــر الله امــرأ ســمع مقــالتى، فأداهــا كما سمعها"، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه، ولا يعمل به، ولا ينقلــه لغيــره، فهــو بمنزلــة الأرض السبخة أو الملساء، التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها، وإنمــا جمــع فــى المثــل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما فــى الانتفــاع بهمــا، وأفــرد الطائفــة الثالثــة المذمومة لعدم النفع بها، وهذا يبين الفروق الفرديــة بــين النــاس، فمــنهم مــن ينتفــع بــالعلم وينفع غيره، ومنهم من ينتفع بالعلم ولا ينفع غيره، ومنهم من لا ينتفع بــه وهــو مجــرد ناقــل لغيره، لينتفع به (٣٩).

٨ــ عن أَنَسٍ عن النبى ﷺ أَنَّهُ كان إذا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَــا ثَلاثًــا، حتــى تُفْهَــمَ عنــه، وإذا أتى على قَوْمٍ، فَسَلَّمَ عليهم سَلَّمَ عليهم ثَلاثًا" (٤٠).

كان النبى يحرص على أن يكرر الكلام ثلاثًا ليفهم عنه، وهذه دعوة إلى مراعــاة الفــروق الفردية، والحرص على تبليغ العلم بطريقة يفهمها الناس.

٩ــ قال عَلِى: حَدِّثُوا الناس بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ الله وَرَسُولُهُ"(٤١).

دعوة على مراعاة الفروق الفردية، وعدم مخاطبة الناس بما لا يعرفون، ولا تطيقه أفهامهم.

١٠ــ عن **ابن شِهَابٍ قال:** أخبرنى عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ أَخْبَرَتْهُ، أَنَّ أُمَّهَا أُمَّ سَلَمَةَ رضى الله عنها، زَوْجَ النبى ﷺ، أَخْبَرَتْهَا عن رسول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سمع خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فقال: إنما أنا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِى الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ من بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِى له بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لــه بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِى قِطْعَةٌ من النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أو فَلْيَتْرُكْهَا" (٤٢).

هذا الحديث يبين فيه ﷺ تفاوت الناس فى الملكات الفردية والقدرات، فبعض الناس ألحن فى حجته، وأقدر على الإقناع من خصمه، ولكن رسول الله ﷺأرشد من كان كذلك أن يعود إلى رشده ولا يقبل الحرام، وليستخدم هذا العقل وتلك الملكات فى الخير ومصلحة الإسلام.

المبحث الخامس

ويشتمل على:

أــ مكان العقل.

ب ــ حواجب العقل.

ج ــ مزيلات العقل ومعطلاته.

أ- مكان العقل:

من المعروف أن الإنسان عندما يغضب يحمر وجهه، وتتجعد ناصيته، وبعدها قد يصاب بصداع، أو دوار، أو عدم اتزان، ويضع يده على رأسه، وعندما يفكر الإنسان، أو يتأمل، غالبًا ما يضع يده على رأسه، وكثرة التفكير ترهق الأعصاب، وتصيب الرأس بالصداع، فهل معنى ذلك أن العقل فى الرأس، ولكن الإنسان عندما يهاب موقفًا معينًا، أو يفاجأ بخبر لم يتوقعه، أو يقع تحت تأثير خوف، أو تهديد، نجد القلب يرتجف وتسرع نبضاته، بل إن الوقوع فى حيرة ينتج عنها أيضًا زيادة فى ضربات القلب (٤٣)، وهذا ما جعل قلب إبراهيم عليه السلام يطمئن عندما قال له الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وكان ذلك فى معرض الجواب على سؤالهرَبِّ﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

إن الدعوة إلى الإسلام موجهة إلى الذين يعقلون، وقد تكرر هذا فى ثمان وأربعين آية، وإن مركز الإدراك، وآثار التفكير، تظهر فى القلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى

ﭐلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)، حيث ذكر فى مائة واثنتين وعشرين آية، وفى الفؤاد ذكر فى ست عشرة آية، وتكرر ذكر كل من التفكير والتفقه فى اثنتين وعشرين آية (٤٤).

واختلف العلماء حول محل العقل إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن محله القلب، وهو منقول عن مالك والشافعى وأحمد.

القول الثانى:عن محله الرأس، وهو منقول عن أبى حنيفة واحمد.

القول الثالث: إنه مشترك بين القلب والرأس، ومحل الخلاف فى ذلك والوفاق نقله لنا الزركشى فى البحر المحيط إذ يقول: "نبه الماوردى فى – أدب الدين والدنيا – على فائدتين إحداهما:

الأولى: إن الخلاف فى الغريزى، أما التجريبى فمحله القلب قطعًا، الثانية: إن هذا الخلاف مفرع على القول بأنه جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات، وأن من نفى كونه جوهرًا أثبت أن محله القلب" (٤٥).

ب ــ حواجب العقل: للعقل آفاته التى تعطل عمله، وتشل قدرته من هذه الآفات:

– الغضب، عن أبى هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَجُلاً، قَالَ لِلنَّبِي ﷺ: أَوْصِنِي؟ قَالَ: لَا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرَارًا، قال: لا تَغْضَبْ" (٤٦).

ــ الهم والحزن، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النبى ﷺ قَالَ لأَبِى طَلْحَةَ: الْتَمِسْ غُلَامًا من غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِى حتى أَخْرُجَ إلى خَيْبَرَ، فَخَرَجَ بِى أبو طَلْحَةَ مُرْدِفِى، وأنا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ، فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّه ﷺ إذا نَزلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يقول: اللهم إنى أَعُوذُ بِكَ من الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ..." (٤٧)، قال المناوى: " لأن ذلك يفضى إلى قسوة القلب" (٤٨).

ــ الكبر والعجب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولاً ﴾ (الإسراء: ٣٧)، فهذا نهى عن التكبر، وأنها صفة سيئة يكتسبها الإنسان ويكتسيها، فيبغضه الله تعالى، ثم يبغضه الناس، فهو مهما تكبر وأعجب بنفسه، فلن يخرق الأرض، ولن يبلغ طولاً مثل الجبال، فعلام يتكبر المرء.

فالمتكبر يختال فى مشيته، ويتبختر فى خطاه، ولذلك يستحق غضب الله، كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث الصحيح، الذى أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، عن ابن عمر عن النبى ﷺ يقول:" من تعظم فى نفسه، أو اختال فى مشيته، لقى الله عز وجل، وهو عليه غضبان" (٤٩).

ــ القتال بغير عدة، وعدة العقل: الحجة، ومن ثم فإن الذى يخاصم بغير دليل، والذى يصارع بغير حجة يضر عقله(٥٠).

وحمى الإسلام العقل، من كل ما يشين الإنسان ويعيبه من أمور كثيرة، يجلبها الإنسان لعقله دون وعى منه، ودون إعمال للإرادة والاختيار، أو يقلد فيها سواه، أو يسيطر عليه خوف يسلبه حرية اختياره أو غيرها من العيوب القادحة فى سلامة العقل كسوء الاختيار، أو القادحة فى قوة العقل كالكسل والعزوف عن التفكير والتأمل والنظر.

ت ـ مزيلات ومعطلات العقل:

شرب الخمر:عن أَنَسٍ، رضى الله عنه، قال: كنت سَاقِى الْقَوْمِ فى مَنْزِلِ أبى طَلْحَةَ، وكان خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ، فَأَمَرَ رسول اللَّهِ ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِى: ألا إِنَّ الْخَمْرَ قد حُرِّمَتْ، قال: فقال لى أبو طَلْحَةَ: اخْرُجْ، فَأَهْرِقْهَا، فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا، فَجَرَتْ فى سِكَكِ الْمَدِينَةِ، **فقال بَعْضُ الْقَوْمِ**: قد قُتِلَ قَوْمٌ وَهِىَ فى بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ الله ﴿ **لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟** ﴾ (المائدة: ٩٣)(٥١)، فقد حرم الإسلام الخمر لأنه يعطل العقل، وإذا ما عطل العقل، فعلت الموبقات والمحرمات، وتعطلت مصالح الأمة، فالخمر من مزيلات العقل.

الطيرة والخزعبلات:

عن أبى هُرَيْرَةَ يقول: قال رسول اللَّهِ ﷺ:**[لا عَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ولا هَامَةَ، ولا صَفَرَ]**(٥٢).

من معطلات العقل وعدم الاستفادة منه؛ التطير، والتشاؤم، والاعتقادات الجاهلية، لذا حث النبى على تنقية العقل من الخرافة والوهم وادعاء علم الغيب، كى لا تسيطر على العقل الخرافات والأوهام التى يهذى بها أهل الشعوذة، والدجل، والسحر، والكهانة، والعرافة، والطيرة، ولكى لا يتصور أحد من الناس أن أحدًا من البشر قادر على أن يعلم الغيب؛ فالله سبحانه هو الذى استأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿ **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا** ﴾ (الجن: ٢٦ــ٢٧).

ضغط الدم:

عن نَافِعٍ، عن ابن عُمَرَ، قال: يا نَافِعُ؛ قد تَبَيَّغَ بِي الدَّمُ، فَالْتَمِسْ لي حَجَّامًا، وَاجْعَلْهُ رَفِيقًا إن اسْتَطَعْتَ، ولا تَجْعَلْهُ شَيْخًا كَبِيرًا، ولا صَبِيًّا صَغِيرًا، فَإِنِّي سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: الْحِجَامَةُ على الرِّيقِ أَمْثَلُ، وَفِيهِ شِفَاءٌ وَبَرَكَةٌ، وَتَزِيدُ في الْعَقْلِ، وفي الْحِفْظِ، فَاحْتَجِمُوا على بَرَكَةِ اللَّهِ يوم الْخَمِيسِ، وَاجْتَنِبُوا الْحِجَامَةَ يوم الْأَرْبِعَاءِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ تَحَرِّيًا، وَاحْتَجِمُوا يوم الاثنين وَالثُّلَاثَاءِ فإنه الْيَوْمُ الذي عَافَى الله فيه أَيُّوبَ من الْبَلَاءِ، وَضَرَبَهُ بِالْبَلَاءِ يوم الْأَرْبِعَاءِ، فإنه لَا يَبْدُو جُذَامٌ ولا بَرَصٌ إلا يوم الْأَرْبِعَاءِ، أو لَيْلَةَ الأَرْبِعَاءِ[٥٣].

يبين رسول الله ﷺ أن الحجامة والعناية بإزالة ضغط الدم يحفظ العقل، ويزيد الحفظ، وهي دعوة للحفاظ على الصحة والبعد عن الأمراض التي تؤثر على العقل أو تؤدي إلى فساده.

المبحث السادس

محدودية العقل وتنميته

أ- محدودية العقل:

اعتمد الإسلام في الوصول إلى المعرفة على طريقين اثنين:

١ــ طريق الوحي: وهو الخبر الصادق عن الله الذي بلغنا عن طريق النبوة والأنبياء.

٢ــ طريق التجربة التي تجمع بين الحس والعقل، وهنا تظهر وسطية الإسلام في الجمع بين النقل والعقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية يصور مذهب أهل السنة والجماعة: "العقل شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وصلاحها، وبه يكمل العلم والعمل، غير أنه ليس مستقلاً بذلك، لكنه غريزة في النفس، وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين، إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإذا انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق، كما يحصل للبهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة بالعقل باطلة " [٥٤].

وليس للعقل دور في كل العلوم، فالعلوم ثلاثة أقسام:

١ــ العلوم الضرورية؛ وهي التي لا يمكن التشكيك فيها، إذ إنها تلزم جميع العقلاء ولا تنفك

عنهم كعلم الإنسان بوجوده، وأن اثنين أكثر من الواحد، وكسماء فوقنا، والأرض تحتنا، إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضرورية.

٢ـ **العلوم النظرية:** وهى التى تكتسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لا بد فى تحصيله من علم ضرورى يستند إليه حتى يعرف وجه الصواب فيه، ويدخل فى هذا القسم كثير من العلوم؛ كالطبيعيات، والطب، والصناعات، فللعقل مجال رحب فى معرفتها وإدراكها والتوسع فيها.

٣ـ **العلوم الغيبية:** وهذه لا تعلم بواسطة العقل المجرد وحده، بل لا بد للعقل إذا أراد أن يعلمها أن يكون له طريق آخر للعلم به؛ كعلمه بما يكون فى البلد القاصى عنه، وعلمه بما فى اليوم الآخر من بعث وحساب وجزاء، وهذا لا يعلم إلا عن طريق الخبر، ويدخل فى هذا القسم كثير من مسائل الاعتقاد، لاسيما التفصيلية منها، فهذه لا يستقل العقل بمعرفتها؛ بل لا بد من اعتماده على الوحى. (٥٥).

هذا الموقف الوسط بخلاف ما عليه أصحاب الفرق الضالة، فمنهم من اعتمد على العقل وأعرض عن الوحى بالكلية كالفلاسفة، أو أسقط حكم الوحى عند التعارض المفترض كما هو حال أكثر المتكلمين، ومنهم من جعل الحق والصواب فيما تشرق به نفسه، وتفيض به روحه، وإن خالف هذا أحكام العقل الصريحة أو نصوص الوحى الصحيحة، كما هو حال بعض المتصوفة (٥٦).

ولمعرفة حقيقة مجال العقل ومحدوديته؛ فإننى أقول: إن الحواس كلها لها طاقة محدودة مقدرة معينة لا تستطيع تجاوزها فكل حاسة تتجاوز مجال قدرتها لا تصل إلى المراد ويلحقها الضرر، فعلى سبيل المثال: العين تبصر وترى الأشياء لكنها برغم سلامتها لا تستطيع رؤية أن ترى الميكروبات الدقيقة برغم أنها موجودة، ولا تستطيع الأشعة تحت الحمراء أو فوق البنفسجية وهكذا، فإن لها مجال وقدرة محددة، وإذا أرادت أن تخرج عن هذا أصابها الضرر ولم تحقق المقصود، فلو أن إنساناً أصرّ على أن يعرف حقيقة الشمس بعينه، وحدّق فيها فى وقت الظهيرة؛ فإنه لن يصل إلى مبتغاه، وسوف يضر عينه، وهكذا بقية الحواس كالأذن وغيرها.

والعقل كذلك له طاقة وقدرة محددة، ولا يستطيع أن يخضع كل المعارف وحقائقها لقدرته، فإن الناس يؤمنون ويسلمون بأمور لا تدركها حواسهم ولا تحيط بها عقولهم، فعلى سبيل المثال الجاذبية الأرضية تقبلها العقول، وإن كانت لا تستطيع معرفة حقيقتها، والكهرباء عبارة عن انتقال الإلكترونات من القطب السالب للموجب، لكن تعجز العقول عن معرفة كنه ذلك، وكذلك العقل يرى السراب، وتعطيه الحواس أن ما تراه ماءً؛ ولكنه من واقع التجربة ينكر دلالة الحواس، ومثل ذلك

القلم إذا وضع فى الماء بدا منكسرًا ومتعرجًا وهو ليس كذلك.

ومن هنا فإن للعقل دائرة لا يستطيع أن يخضعها لمجال عمله، ومن ذلك أمور الغيب، ويمكننا أن نقول: إن ما دخل فى دائرة الغيب، خرج من دائرة العقل؛ فعلى سبيل المثال: الميت إذا وضع فى قبره، ردت إليه روحه، وجاءه الملكان فيجلسانه، ويسألانه كما هو معروف فى نص الحديث الصحيح، فعن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: [**الْمُسْلِمُ إذا سُئِلَ فى الْقَبْرِ، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(إبراهيم: ٢٧)][٥٧]. فكيف هى عودة الروح؟، ولماذا لا يصيح الميت، ويطلب الخروج؟ وكيف يفسح له فى قبره مدّ بصره إذا كان من أهل النعيم؟

كل ذلك لا يمكن تفسيره ومعرفته بالعقل، فالعقل مجال عمله دائرة الشهادة وأما الغيب فلا، ومثل ذلك يمكن أن يقال فى مثال أقرب؛ وهو مثال الرؤى التى يراها النائم، وكيف نستطيع أن نفسر أن النائم إذا رأى فى المنام أنه يجرى استيقظ وهو يلهث؟ ما صلة الرؤية بعالم الشهادة؟

إذن المطلوب فى أمور الغيب ما دامت جاءت من طريق الوحى أن يقبلها العقل ويسلم بها، ولا يخوض فى معرفة كنهها، ولو فعل ذلك لما وصل إلى نتيجة ولأضر ذلك بعقله، كما قلنا بشأن العين عندما تحدق فى الشمس، وهذا الذى للفلاسفة وغيرهم ممن أرادوا أن يعرفوا بعقولهم ما وراء عالم الشهادة.

تنمية العقل:

ينبغى أن نعمل على تنمية ذلك العقل لنساعده على إطلاق القدرات الكامنة فيه بإذن الله ويصقل بالعلم والمعرفة، فيما أوجد الله فى هذا العالم من مخلوقات، وأنعام، وأشجار، وجبال، وبحار، وثروات دفينة فى بره وبحره، ونواميس تتحكم فى بقائه واستمرار حركته، فإذا استعمل كما يجب، وصقل فيما ينفع ويعمر، يبلغ ذلك العقل منتهى نضجه من الحكمة والرشاد [٥٨].

ويحدد الإسلام مجال النظر العقلى، فيرى أن طريق العقل فى معرفة الله وفى الوصول إلى الحق، هو تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل، دون إغراق فى اللاهوتيات أو ما وراء الطبيعة أو الغيبيات، حيث إن ذلك من شأن الروح وحدها، ويدرب الإسلام الطاقة العقلية عن طريق الاستدلال المستمر والتعرف على الحقيقة، ويصل إلى ذلك بطريقتين:

الطريقة الأولى: هو وضع المنهج الصحيح للنظر العقلى.

الطريقة الثانية: هو تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط[٥٩].

إذًا كيف يمكن تنمية العقل وتدريبه حتى يستطيع أن يكون بالفعل أداة الإنسان المسلم فى تربية نفسه والمساهمة فى تطوير مجتمعه.

ويقول ابن حبان " أن المرء لا يكون مصيبًا فى تناول الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب " لا ينفع العقل إلا بالاستعمال"[٦٠].

وعليه يمكن تنمية العقل بطرق عديدة منها:

الطريقة الأولى: وهى وضع المنهج الصحيح للنظر العقلى، فالإسلام يحقق ذلك عن طريق وضع مجموعة من التدريبات، وإرساء مجموعة من الأسس للنظر العقلى، فيبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقم على يقين، وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن، فينبغى على المقلدين الذين يقولون: ﴿ **بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الزخرف: ٢٢)، وينعى على الذين يتبعون الظن ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ** ﴾ (النجم: ٢٣). ثم يأمر بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً** ﴾ (الإسراء: ٣٦).

الطريقة الثانية: هى تدبر نواميس الكون، فالنواميس الكونية تجرى فى دقة عجيبة ونظام لا يختل وفوق ما يوحيه ذلك للقلب البشرى من تقوى الله الصانع المدبر، فإنه يعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام، ويطبعه بطابع الدقة والتنظيم، فعن طريق الدقة والتنظيم والترابط فى الكون يحاول العقل ربط أفكاره، وإيجاد العلاقات، والوصول إلى الكليات التى تحكم الجزئيات، وللوصول إلى هذه الغاية، فالإسلام يوجه الطاقة العقلية أول ما يوجهها إلى التأمل فى حكمة الله وتدبيره.

لكن التأمل ليس غاية فى حد ذاته، بل غايته إصلاح القلب البشرى، وإقامة الحياة فى الأرض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين فى بنية الكون وبنية الحياة [٦١].

ومنهج التربية الإسلامية يربى العقل أيضًا عن طريق توجيه الطاقة العقلية إلى النظر فى حكمة التشريع، يقول تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: ١٧٩).

ويربى الإسلام العقل عن طريق توجيه الطاقة العقلية إلى النظر فى سنة الله فى الأرض وأحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ**

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧ـ١٣٨).

إن الإسلام يوجه الطاقة العقلية إلى التبصر فى عوامل التطور الحقيقية فى المجتمعات، وإلى البحث فى أسبابها ونتائجها، فسنة الله الخالدة هى التمكين للمؤمنين والتدمير للكافرين، حتى وإن بدا فى وقت من الأوقات أن الواقع هو النقيض؛ فالقرآن يوجه العقول والقلوب ألا تستعجل النتائج، فهى لا بد آتية حسب سنة الله، التى لا تتبدل، ولا تتحول، وقد يتمكن الباطل ويعلو فترة من الوقت لكن هذا ليس نهاية الأمر، أنه جزء من سنة الله المتشعبة الشاملة (٦٢).

وللتربية العقلية فى الإسلام مجموعة من الجوانب أهمها: تكوين العقلية العلمية المؤمنة، وتكوين البصيرة، وتكوين الحكمة، وتكوين روح الالتزام بالعلم والمسؤولية العقلية، ولا بد أن تتم تربية هذه الجوانب بشكل متوازٍ متكامل فى حياة الفرد(٦٣).

إن الإسلام هو الدين الذى أتاح للعقل هذا القدر من حرية التفكر، لأنه دين القراءة التى نزلت بها أول آية من وحيه وتشريعاته فى قوله تعالى: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق: ١ـ٥)، لأنه دين القلم والمعرفة، وفضل أهل العلم على أهل الجهل عظيم ومعلوم، يدركه أهل العقول السليمة، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (الزمر: ٩)، وقد أقسم سبحانه وتعالى بالقلم (رمز المعرفة) فى آية من آيات كتابه العزيز، وسميت به السورة التى ابتدئ بها هذا القسم: ﴿ **نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ (القلم:١).

وهذه التربية القرآنية الداعية للتفكر والتدبر العقلى بقصد الاستدلال على مسبب الأسباب والخالق الفعلى للأكوان، إنما يضع لها الوحى النبوى ــ المبيّن للكتاب ــ ضابطًا مهمًا، وهو عدم تجاوز هذا التفكر العقلى والتأمل ليصل إلى إعمال العقل والتفكر فى الذات الإلهية وماهيتها لابتغاء معرفة كنهها.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [**لَنْ يَبْرَحَ الناس يَتَسَاءَلُونَ، حتى يَقُولُوا هذا الله خَالِقُ كل شَىءٍ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ**] (٦٤)، فليس من الحكمة أن يتفكر الإنسان فى ذات الله لأن فى ذلك مهلكة لعقله حيث حمله فوق ما يطيق وجاوز به حدوده

المشروعة، التى تؤول به إلى عاقبة المآل فى الآخرة، والضلال والتيه فى الدنيا.

فالرسول ﷺ حين يحذر من ذلك ليس من باب التحجير على العقل أن يتفكر، أو أن يحد من حريته الفكرية، وإنما هو من باب صيانة العقل والجهد الفكرى أن يتبدد فى الضار من الأعمال، بدل توفيره للنافع منها، وهوﷺ يربى العقل أن ينضبط بالحدود التى رسمها الله له، ولمحدودية إدراكه ما هو فوق حدود طاقته التى رسمها الله له، ولمحدودية إدراكه الحكمة من تغييب بعض المسائل التى لا فائدة للعقل من معرفتها، سوى البذخ الفكرى المبدد للجهد والمضيع للوقت، الذى لا شك أنه محاسب عليه يوم القيامة فيما صرفه وقضّاه.

النتائج والتوصيات

ــ لقد أحاط الدين العقل بالرعاية والعناية، وجعله مناط التكليف لدى الإنسان، كما جعله وسيلة فهم نصوص الوحى، وما اشتملت عليه من أحكام مختلفة؛ والعقل هو المسئول عن كيفية تطبيق هذه النصوص، لأنه وسيلة فهم كل من النص والواقع المزمع إنزال النص فيه، والإنسان إذا ما فقد هذه الملكة العقلية، تسقط عنه أهلية التكليف.

ــ مسايرة العقل السليم للفطرة، إذ العقل هو مصدر تغذية هذه الفطرة بالمعانى الإيمانية، وهو ما جعل العديد من عقلاء العلماء يدخلون فى الإسلام، حيث بهرت عقولهم الحقائق الكونية التى نبهت إليها نصوص الوحى القرآنى والنبوى، ووافقتها علومهم.

ــ تناسب التوجيهات العقلية التى وردت فى نصوص الوحى الخاصة والعامة، لبداهتها ويسرها، حيث عملت هذه التوجيهات منذ بدء نزول الوحى على تفريغ عقل الإنسان من كل معتقد أو تصور لا يتفق مع الدين والفطرة؛ بل بما يتوافق مع العقيدة الصحيحة، والتصورات السليمة للخالق والكون والإنسان والحياة.

ــ تكامل المصدرين "الوحى والعقل" مع الكون، لتمكين الإنسان من تحقيق مقاصد الخلق، وأداء دور الاستخلاف فى الأرض.

ــ لا مجال ــ فى الرؤية الإسلامية السليمةــ للانحراف والاستبداد باسم العقل، كما أنه لا مجال لتعطيل العقل باسم الشرع، وأن يحوّل الأخير إلى وسيلة ترهيب وتخويف للناس، أو أن يحوّل إلى جملة من القيود متمثلة فى عدد من الأوامر والنواهى والتجريمات التى لا تراعى أحوال الناس وواقع حياتهم، وما يتعرضون له من تحديات.

ــ أكد القرآن الكريم، والسنة النبوية، على أهمية استخدام العقــل فــى العلــم، وضــرورته للمعاملات، وحث على تقديم أصحاب العقول والنهى والأحلام على غيرهم، وقد مُيز الإنسان بالعقل دون غيره، وعد العقل وسيلة الإدراك والتميز والحكم، واعتُرِفَ بدور العقل فى الاجتهاد والتجديد، ودوره فى تلقى العلم، ووجوب استخدام العقل والتفكير فى العبادة وكل شؤون الحياة.

ــ هناك اختلاف فى مكان العقل، تراوح بين من يرى وجوده فى القلب، أو الرأس أو مشترك بينهما.

ــ راعى القرآن الكريم والسنة النبوية التفاوت بين الناس فى العقل ــ الفروق الفرديــة بــين الناس ــ من خلال (إقرار الإسلام بالتفاوت بين الناس واختلافهم فى الملكات العقليــة والقــدرات الفردية، وحرص النبى ﷺ على تكرار الكلام ثلاثًا ليفهم عنه، وإرشاده لضرورة أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، ودعوة السنة لعدم التشديد..).

ــ حمى الإسلام العقل من كل ما يشينه ويعيبه، كالتقليد والاغترار بأصحاب السلطة والخوف منهم، وحث على التداوى والحفاظ على الصحة.

ــ حرّم الإسلام الخمر، وكل ما خامر العقل، ويقاس عليها كل ما اشترك معها فى العلة.

ــ حددت الشريعة الغراء، حدودًا للعقل ينبغى عدم تجاوزها، وتم بيان حاجة العقل إلى الدين.

ــ حرص الإسلام على تنمية القدرة العقلية للإنسان المسلم، من خلال عدد من الطرائق منها:

- استخدام السؤال باعتباره مفتاح العلم.
- اعتماد الحوار والنقاش كسبيل للتعلم والتلقى.
- إقراره بمبدأ الشورى، والاستشارة كأصلين من أصول الإسلام.
- اعتماد تكرار المعلومة ثلاثة، لترسخ وتحقق الهدف منها.
- الاستعانة بضرب الأمثال لتوصيل المعلومة للمتلقى.
- حفاظه على العقل من كل ما يؤثر عليه، ويضعف قيامه بدوره بكفاءة.

ونوصى فى الختام، بضرورة إجراء المزيد من الدراسات العلمية المحددة حول العقل فى الفكر الإسلامى، لأهمية دوره فى فهم الإسلام، ومحاولة تطبيقه فى مجالات الحياة المعاصرة (السياســية والاقتصادية والاجتماعية..).

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل،،،

الهوامش:

(١) مناهج البحث العلمى، عبد الرحيم بدر، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٤م، ص ٢٣٤.
(٢) منهجية البحث العلمى وتطبيقاتها فى الدراسات التربوية والنفسية، حمدى عطيفة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣٧٥.
(٣) مصادر المعرفة فى الفكر الدينى والفلسفى دراسة نقدية فى ضوء الإسلام، عبد الرحمن الزبيدى، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فيرجينيا، أمريكا 1992 ص302 .
(٤) مباحث فى علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، بيروت ط٣، ٢٠٠٠، ص ١٧.
(٥) انظر المدخل لدراسة السنة النبوية، الدكتور يوسف القرضاوى ص7 ، والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، الدكتور مصطفى السباعى، ص4 .
(٦) معجم مقاييس اللغة، لأبى الحسين أحمد بن فارس، تحقيق :عبد السلام هارون، ط2، 1971، مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده، مصر،٤/69 .
(٧) مصادر المعرفة فى الفكر الدينى والفلسفى دراسة نقدية فى ضوء الإسلام، عبد الرحمن الزبيدى، ص301 .
(٨) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، دار ومكتبة المعرفة، ١٥٩/١.
(٩) النزعة العقلية عند الإمام الشافعى، محمد إبراهيم الفيومى، جامعة الأزهر،ص423 .
(١٠) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٣،1985، دار الفكر، بيروت، ص617 .
(١١) المرجع السابق، ص ٦١٧.
(١٢) تطور الفكر التربوى، فيصل الراوى رفاعى وآخرون،2000 ، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع،عمان،2000 ، ص١٠١-١٠٢.
(١٣) بحوث فى التربية الإسلامية، سعيد اسماعيل على، مركز التنمية البشرية والمعلومات، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٩٢-٢٩٣.
(١٤) علاقة الوحى بالعقل، عثمان قره دنيز، التجديد، ع4 ، الجامعة الإسلامية، ماليزيا،1998 ص213 -214.
(١٥) الأدلة العقلية وعلاقتها بالنقلية عند الأصوليين، محمد سعيد منصور، الدار السودانية للكتب، الخرطوم،1999 ، ص35 .
(١٦) التربية الغائبة، على عبد الحليم محمود، ١٩٩٦، ص ٢٠٦-٢٠٩.
(١٧) بحوث فى التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل على، ص292 – 293.
(١٨) سنن أبى داود، باب فى الغلام حتى يصيب الحد.
(١٩) موقع إسلام ويب، www.islamweb.net، موسوعة الفتاوى، فتوى رقم ٧٩٨٢٤.
(٢٠) ملحمة الاعتقاد، العز بن عبد السلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ص٢٢.
(٢١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، (بدون ط أو ت)، ٢٦١/١٠.
(٢٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، (بدون ط أو ت)، ٨٨/٢.
(٢٣) فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١١، ١٩٨٥م، ٥٤٥/١.
(٢٤) تفسير التحرير والتنوير، ٦٥/١٩، أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ١٧٥/٤.
(٢٥) تفسير التحرير والتنوير، ٢٠ /٤٨-٤٩، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، الألوسى البغدادى، دار

إحياء التراث العربى، بيروت، ط٤، ١٩٨٥، ٣٤/٢٠ -٣٥.

(٢٦) كتاب التوحيد، عبد المجيد الزندانى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، طبعة١، ١٩٨٨م، ٢٢٨/٣.

(٢٧) كتاب التوحيد، ٢٧٠/٣.

(*) عقديًا لا يصح وصف أى عمل كان بأنه وقع "صدفة"، فكل عمل هو من تقدير الله – سبحانه- فهذا المصطلح لا وجود له فى مفهوم العقيدة الإسلامية.

(٢٨) كتاب التوحيد، ٣٢/١-٣٣.

(*)قد تكون الآية ذكرت الإبل لأنها أضخم ما عرفه العرب ورأوه، ولما لها من خصائص تختلف بها عن بقية الحيوانات، ويقاس على الإبل سائر الحيوانات الضخمة.

(٢٩) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميدانى، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٨٦م، ص١٠٩.

(٣٠) صحيح البخارى، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧، ط٣، تحقيق د. مصطفى ذيب البغا.

(٣١) صحيح مسلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، دار إحياء التراث العربى، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٣٢) صحيح البخارى، باب الاغتباط فى العلم والحكمة.

(٣٣) صحيح مسلم، باب تسوية الصفوف وإقامتها.

(٣٤) هو التمر الرديء." شرح النووى على مسلم، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٩٢هـ، ط٢، ١١٨/١٥.

(٣٥) صحيح مسلم، باب فضل النظر إليه ﷺ.

(٣٦) صحيح البخارى، باب قول النبى ﷺ رب مبلغ.

(٣٧) فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ابن حجر العسقلانى، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب، ١٥٩/١.

(٣٨) صحيح البخارى، باب فضل من علم وعلم.

(٣٩) فتح البارى، ١٧٧/١.

(٤٠) صحيح البخارى، باب من أعاد الحديث ثلاثًا.

(٤١) المرجع السابق، باب من ترك بعض الاختيار ومخافة أن يقصر.

(٤٢) المرجع السابق، باب إذا أذن إنسان لآخر جاز..

(٤٣) قيمة العقل فى الإسلام، محمد الصايم، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٥.

(٤٤) الأصول التاريخية للعقل فى الفكر العربى، صالح احمد العلى، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها المجمع العلمى العراقى ببغداد، ومركز دراسات الوحدة العربية، بغداد،1994 ، ص ١٨.

(٤٥)- الأدلة العقلية وعلاقتها بالنقلية عند الأصوليين، محمد سعيد منصور، ص ٣٧.

(٤٦) صحيح البخارى، باب الحياء..

(٤٧) المرجع السابق، باب فضل من حمل متاع صاحبه بالسفر..

(٤٨) فيض القدير، شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ، ط، ٤٦٢/٤..

(٤٩) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخارى، دار البشائر الإسلامية -بيروت - ١٤٠٩ - ١٩٨٩، ط٣.

(٥٠) بحوث فى التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل على، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية، ط١، ٢٠٠٥، ص294 .

(٥١) صحيح البخارى، باب ما جاء فى السقائف.

(٥٢) صحيح البخارى، باب الجذام.

(٥٣) سنن ابن ماجه، باب فى أى الأيام يحتجم، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٥٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، ط٢، تحقيق عبد الرحيم بن محمد بن القاسم النجدى، (٣٣٨/٣).

(٥٥) الاعتصام، أبو اسحق الشاطبى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ٣١٨/٢-٣٢٢.

(٥٦) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن على حسن، مكتبة الرشد، ١٩٩٧م، ص١٦٩.

(٥٧) صحيح البخارى، باب تثبيت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.

(٥٨) تطور التفكر التربوى الإسلامى، فيصل الراوى رفاعى وآخرون، ص ١٠١.

(٥٩) منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته، على أحمد مذكور،ص223 .

(٦٠) بحوث فى التربية الإسلامية، سعيد إسماعيل على، ص295 .

(٦١) منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته، ص224 .

(٦٢)- منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته، ص ٢٣٠.

(٦٣) تطور الفكر التربوى الإسلامى، ص105 .

(٦٤) صحيح البخارى، باب ما يكره من كثرة السؤال.